الفصل الخامس
فى الطيبات من الرزق

- الاعتدال فى جمع المال
- النية والصدقة
- حرمة المال العام
- طهارة التجارة
- فضل الزراعة
- نقمة المال
- الوفاء بالنذر
- ظلم اليمين الكاذبة
- حرمة التعامل فى الخمر
- أحكام فى الصيد
- شراء الإنسان لما تصدق به
- التأليف بالعطاء
- القناعة والقصد فى جمع المال
- الإيثار فضيلة الأنصار
- النفقة على الأقربين
- البحث عن المسكين المتعفف
- العطاء دون سؤال
- أصحاب المسألة
- المسارعة لقضاء الديون
- حسن قضاء الدين
- حقيقة المفلس
- فضل الشهادة فى سبيل الله وأهمية إبراء الذمة

الاعتدال فى جمع المال

حب المال غريزة، إلا أن هذه الغريزة يجب أن نتسامى بها حتى لا تتحول إلى مصدر شقاء للفرد والمجتمع، فالمال ينبغى أن نجمعه من الحلال ونصرفه فى البر، فإن خرج عن هذا الإطار كان وبالاً على صاحبه، فالذى يجمع المال من حلاله وحرامه، ولا يبالى من أين أتى، ويضيع حياءه ويريق ماء الوجه ويذل نفسه فى سبيل الحصول عليه – هو إنسان لن يبارك الله له فى هذا المال، ولن يحسن الانتفاع به، وسيظل قلقا لا يهدأ..

والذى ينفق المال فى غير وجوه البر المشروعة هو أيضا إنسان يورد نفسه المهالك، ويتحمل أوزارا شتى نتيجة انفاق المال فى المعصية أو على الملذات والشهوات أو نتيجة الإسراف الذى يخرج عن حد الاعتدال..

وقد وصف الله تعالى عباد الرحمن بقوله:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾.

(سورة الفرقان/ ٦٧)

وحدد الله تعالى طرق الإنفاق فقال:

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾

(سورة الإسراء / ٢٦ : ٢٧)

وذات يوم جاء أحد الصحابة ويسمى حكيم بن حزام، وسأل رسول الله ﷺ مالاً فأعطاه، ثم سأل مرة ثانية فأعطاه، ثم سأل الثالثة فأعطاه، لأن الرسول الكريم كان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر، وكان لا يرد سائلا، وكان يجود بما عنده، بل ربما اقترض ليعطى السائل لأن النبى ﷺ كما وصفه ربه :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة القلم / ٤)

ومع ذلك فإن الرسول هو المعلم الذى يرشد الناس إلى الخير والعفاف والبر، ويربى أصحابه على مكارم الأخلاق، فبدأ الرسول يوجه النصيحة لهذا السائل الذى كرر المسألة، فبين له أن المال قد يغرى الإنسان ويخدعه فينبغى الحذر فى جمعه بحيث لا يصاب المرء بالهلع والحرص الشديد الذى يريق ماء الوجه ويذهب بحياء الإنسان، ووضح الرسول أن الإنسان الذى يأخذ المال بعزة النفس يبارك الله تعالى له فى هذا المال، وأن الذى يأخذ المال بلا حياء ولا كرامة لن يكون مباركا له فيه، وكان كالذى يأكل ولا يشبع، أو كالذى يشرب الماء المالح فلا يزداد إلا عطشا..

عندئذ قال النبى ﷺ:

إن هذا المال خُضْرة حلوة، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذى يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى.

النية والصدقة

المال مال الله استودعه بعض عباده ليشاركوا به فـى بنـاء المجتمـع، ومسـاندة المؤمنين، ومساعدة ذوى الحاجات..

والإنسان المتصدق يتحرى بصدقته أن تصل إلى من يستحقها ويكون أهـلا لهـا، لكن أحيانا يبحث المسلم عن أخيه المستحق للصدقة فيصادف إنسانا يظنـه كذلـك فيعطيه صدقته ثم يفاجأ بعد ذلك بأنه لا يستحق الصدقة..

فهذا الإنسان المتصدق له ثواب نيته وبحثـه وتحريـه عـن مصارف صدقتـه ولا يضره بعد ذلك من أخذها..

وقد كان رسول الله ﷺ يحث أصحابه على الصدقـة ويدفعـهم إلى البحـث عـن ذوى الحاجات من إخوانهم، وكان يضرب لهم الأمثـال ويقـص عليـهم القصـص، ويخبر عما حدث فى الأمم السابقة ليكون لهم عبرة وذكرى..

وذات يوم أخبر النبى ﷺ أصحابه عن هذه القصة:

(قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة) أى عزم الرجل على إخـراج صدقـة لـه فـى الخفاء وفى جوف الليل حتـى يظـل عملـه خالصا لوجـه الله تعـالى بـلا ريـاء ولا سمعة..

(فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية) أى أن الرجـل خـلال محاولتـه البحـث عن مستحق الصدقة صادفته امرأة ظنها محتاجة فأعطاها الصدقة فـإذا هـى امـرأة زانية، وشاع الخبر، فأصبح الناس يتحدثون ويقولون تُصُدق الليلة على زانية!!

فحمد الرجل ربه وقال: اللهم لك الحمد على زانيـة، ثـم عـاود الصدقـة وقـال لأتصدقن بصدقة فخرج فوضعها فى يد غنى فأصبح الناس يتحدثون قائلين تُصُـدق على غنى، فحمد الرجل ربه وقال: اللهم لك الحمد على غنى، ثم عـاود الصدقـة وقال: لأتصدقن بصدقة، فخرج فوضعها فى يد صادفت يد سارق..

فرجع الرجل وهو حسير وقال: اللهم لك الحمد على زانية وعلى غنى وعلى سارق..!! وظن الرجل أن صدقته ذهبت هباء ولا ثواب له..

عندئذ قال النبى ﷺ لأصحابه:

إن مَلكا أتى إلى الرجل قائلا: أما صدقتك فقد قُبلت، أما الزانية فلعلها تستعف بها عن زناها، ولعل الغنى يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق يستعف بها عن سرقته.

حرمة المال العام

المال العام هو المال الذى يكون ملكا مشتركا بين المسلمين، ويتولى الحاكم المسلم وضعه فى خدمة مصالح الأمة كلها، يقوى به الجيش، ويشيد به المدارس والمساجد والمصانع ويبنى به المستشفيات والمرافق..

هذا المال العام يجب الحفاظ عليه والأمانة فى إنفاقه والحرص على أن يصل إلى مستحقه، وأى اعتداء عليه يتحمل صاحبه وزرا ثقيلا فى الدنيا والآخرة، وتظل الجريمة تلاحقه ما لم يتب ويرد المال إلى خزانة الدولة، أو يضع الأمر تحت تصرف ولى الأمر العام..

وفى غزوة خيبر التى وقعت فى العام السابع من الهجرة، وتم فيها إجلاء اليهود عن الجزيرة العربية – أقبل نفر من صحابة النبى ﷺ فقالوا: فلان شهيد، فلان شهيد، وأخذ الصحابة يذكرون شهداءهم بالخير، ومروا على رجل قتيل فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله ﷺ: كلا، إنى رأيته فى النار فى بردة غلّها أو عباءة..

أى أن رسول الله ﷺ لفت أنظار أصحابه إلى قضية جد خطيرة، وهى أن الشهادة وإن كانت مرتبة عليا ومكانة سامية وثوابا أعظم، إلا أن الغلول من المال العام والأخذ منه دون استحقاق، والاستئثار ببعض أموال الغنائم العسكرية دون إذن من الحاكم العام.. كل ذلك جريمة تحبط ثواب الأعمال الصالحة وتطعن فى دين صاحبها وتسلبه الكرامة فى الدنيا والآخرة..

وقد تكرر هذا الموقف من الصحابة، فقد أصاب سهم عبدا لرسول الله فكان فيه حتفه أثناء عودتهم من غزوة خيبر فقال الصحابة: هنيئا له الشهادة يا رسول الله، فقال: كلا.. والذى نفس محمد بيده إن الشملة لتلتهب عليه نارا، أخذها من الغنائم يوم خيبر لم تصبها المقاسم..

ففزع الناس وأخذ كل منهم يفتش فى أعماله وتصرفاته، حتى جاء رجل بشراك أو شراكين (خيط للنعال) فقال رسول الله ﷺ: شراك من نار أو شراكان من نار..

إن الصحابة رضى الله عنهم تلقوا درسا بليغا من هذا الموقف، وعلموا حرمة المال العام، وأدركوا أن الشهادة فى سبيل الله — رغم عظم ثوابها — لا تمحو هذه الجريمة النكراء..

وعندئذ نادى الرسول على عمر بن الخطاب وقال: **يا ابن الخطاب اذهب وناد فى الناس أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون..**

طهارة التجارة

ربط الله تعالى الحل بالطيبات ، والحرمة بالخبائث، فقال جل شأنه:

﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾

(الأعراف / ١٥٧)

وحرمة الخبائث تتناول الأكل وكافة أنواع الانتفاع الأخرى، ولا يجوز لمسلم أن يبيع أو يشترى ما حرمه الله تعالى، فإن الكسب الخبيث يحبط عمل الإنسان، ولا تقبل منه صدقة، ولا يرفع معه دعاء، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا..

وفى العام الثامن للهجرة حين فتح المسلمون مكة وعادوا إلى ديارهم وأهليهم بعد أن هاجروا منها مكرهين حفاظا على الدين والعرض، وقف رسول الله ﷺ يوجه المسلمين كى يحافظوا على طهارة عقيدتهم وسلوكهم فقال: إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام..

لقد كان الناس فى الجاهلية يشربون الخمر ويأكلون الميتة والخنزير ويعبدون الأصنام، فلما جاء الإسلام عالج قضية العقيدة فحرم الأصنام، وعالج قضية الشريعة فحرم الخمر والميتة والخنزير، فالخمر أم الخبائث، وأضرار الميتة كثيرة متعددة وكذلك أضرار الخنزير البدنية والنفسية..

وتحريم هذه الأشياء يجعل المسلم ينأى عنها كلية، فلا يتجر فيها ولا يتكسب منها ولا ينتفع بأى شىء يتعلق بها، فليس التحريم مقصورا على الأكل بالنسبة للميتة والخنزير، أو المشرب بالنسبة للخمر، أو العبادة بالنسبة للأصنام..

بل لا يجوز شرعًا تربية الخنازير ولا التجارة فيها، ولا يجوز شرعا تجميع لحوم الميتة لبيعها لمن يستحلها أو للانتفاع بها فى جوانب أخرى غير الأكل،

ولا يجوز شرعا تصنيع الخمور أو الترويج لها حتى بين من يشربها من غير المسلمين، ولا يجوز شرعا إقامة الأصنام أو التماثيل قطعا لدابر الشرك والوثنية..

وهنا تساءل الصحابة وقالوا: يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنه يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس.

لقد أرادوا الاستفسار عن حكم الانتفاع بشحوم الميتة فى أشياء أخرى غير المآكل كطلاء السفن ودبغ الجلود والإضاءة بزيوتها..

فقال رسول الله ﷺ: لا، هو حرام.

إن الإسلام يريد منا التباعد التام عن كل ما هو محرم، وأن يظل المسلم طاهر القلب، طاهر السلوك، طاهر المعيشة، طاهر المال، طاهرًا فى كل ما يحيط به ويتعامل فيه..

لقد كان لليهود تحايل على شرع الله، فقد حرم الله عليهم أكل بعض الحيوانات والطيور عقوبة لهم، فما كان إلا أن جمعوا شحوم هذه الحيوانات وباعوها وأكلوا أثمانها..

إن الصحابة سألوا عن حكم استخدام شحوم الحيوانات المحرمة، وعندئذ قال النبى ﷺ :

قاتل الله اليهود، إن الله عز وجل لما حرم عليهم شحومها أجملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه..

فضل الزراعة وثوابها

كان رسول الله ﷺ يتفقد أصحابه ويزورهم فى بيوتهم ومواطن أعمالهم، وكانت له معهم نصائح وتوجيهات، تحملوها وبلغوها الناس حتى يسعدوا بتطبيقها والعمل بها..

ونحن الآن مع رسول الله ﷺ فى زيارته لإحدى الصحابيات وهى تعمل فى مزرعتها، إنها السيدة أم مبشر الأنصارية زوجة زيد بن حارثة رضى الله عنه، دخل عليها رسول الله فى نخل لها، أى فى أرض مزروعة نخلا، وهى تعمل ما يعمله الزارع لإصلاح زرعه والعناية به وسقيه..

فإن العمل شرف، وأطيب الكسب عمل الإنسان بيده، والمسلم لا يكون عالة يتكفف الناس، بل يسعى فى مناكب الأرض يلتمس رزق الله عز وجل، ولا حرج على المرأة شرعا أن تساعد زوجها، وتعمل فيما لا يسىء إليها، ولا يخدش حياءها، ولا يجرح عفافها، وفى حدود الالتزام بالزى الإسلامى الذى يستر جميع بدن المرأة ما عدا الوجه والكفين، ولا يجسم العورة، ولا يشف عما تحته..

والزراعة لها شأن فى الإسلام، وقد امتن الله تعالى على عباده بإخراج الطيبات من الرزق كالحبوب والثمار والفواكه وغيرها مما ينتفع بها الناس والأنعام.، وكثيرا ما تحدث القرآن المجيد عن الحدائق ذات البهجة، وعن المراعى، وعن الثمار والأعناب والفواكه بيانا لفضل الله على خلقه..

والمسلم الذى يفلح الأرض ويعتنى بزراعته ونمائها، له ثواب جزيل عند الله تعالى بقدر ما ينتفع بزرعه، سواء كان الانتفاع لإنسان أو طير أو بهيمة أو غير ذلك.

ولنعلم أن ثواب الله تعالى إنما هو للمؤمنين الذين يطيعون الله ورسوله ويعملون الطيبات، ولكن الكافرين الذين يتمردون على طاعة الله ويستكبرون عن عبادته

لا حظ لهم فى الآخرة من ثواب الله وفضله.. وقد يمنحهم الله تعالى فى الدنيا مزيد مال أو ولد، وليس لهم فى الآخرة إلا النار وتكون أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء فلا يجده شيئا..

ولهذا سأل رسول الله ﷺ أم مبشر فقال: من غرس هذا النخل أمسلم أم كافر؟

فقالت: بل مسلم.

عندئذ قال النبى ﷺ:

لا يغرس مسلم غرسًا ولا يزرع زرعا فيأكل منه إنسان ولا دابة إلا كانت له صدقة.

نقمة المال

المال نعمة يوم يجمعه الإنسان من الحلال ويصرفه فى البر، فينتفع به الفرد والمجتمع، فنعم المال الصالح للرجل الصالح..

والمال فى أيدى السفهاء نقمة حيث يمنعونه من حقه ويصرفونه فى مسالك الفحشاء والمنكر، ولذا استحقوا وصف (إخوان الشياطين) فى قوله تعالى:

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

(الإسراء — ٢٦ : ٢٧)

ولنا فى رسول الله ﷺ القدوة الحسنة، فقد كان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر، وكان أجود الناس، وكان أجود بالخير من الريح المرسلة..

وكم أمر الرسول ﷺ أصحابه بالبذل والجود والإيثار ووعدهم فضل الله وثوابه الجزيل فى الدنيا والآخرة.

وكم حذر الرهول من البخل والشح، وتوعد على ذلك وعيدا شديدا فى الدنيا والآخرة.. ويكفى أن تقرأ قول الله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

(التوبة — ٣٤ : ٣٥)

وذات يوم جاء الصحابى الجليل أبو ذر رضى الله عنه إلى النبى ﷺ وهو جالس فى ظل الكعبة، فلما رآه الرسول الكريم قال:

هم الأخسرون ورب الكعبة..

فالرسول هنا يقسم بالله أن هناك جماعة من الناس هم الأكثر خسارة والأكبر ضياعا والأسوأ عاقبة..

ولم يدرك الصحابى الجليل أبو ذر صفة هؤلاء الأخسرين التى جعلتهم فى هذه الحال السيئة.. فقام إلى الرسول وناشده قائلا: يا رسول الله فداك أبى وأمى من هم؟

فأجابه الرسول موضحا حقيقة أمر هؤلاء الأخسرين بأنهم أصحاب الأموال الكثيرة، المترفون الذين اكتفوا بصرفها فى شهوات المآكل والمشارب والملابس، ولم يعرفوا حق ذوى الحاجات، ولم يستخدموا مال الله فى منفعة خلق الله..

عندئذ قال النبى ﷺ:

هم الأكثرون أموالاً إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا، من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، وقليل ما هم، ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدى زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت، وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، كلما نفدت أخراها عادت عليه أولاها، حتى يُقضى بين الناس..

الوفاء بالنذر

حدد الله تعالى الفرائض، وبين الحلال والحرام، وربط ذلك كله باستطاعة الإنسان وقدراته، ولم يكلفنا الله تعالى بما يشق علينا أو نعجز عن الوفاء به، فالله تعالى رحمن رحيم..

لكن الإنسان قد ينذر شيئا يتقرب به إلى الله تعالى، يلزم به نفسه، ويدفعها إلى مزيد من الطاعة يؤكد به ولاءه لله وشرعه..

ولابد فى النذر أن يكون من جنس طاعة مشروعة، كأن ينذر المرء أن يصلى عددا من الركعات ليلا، أو ينذر أن يصوم يوما أو أياما، أو ينذر أن يقرأ قدرا معينا من القرآن، أو يتصدق بصدقة زائدة على الزكاة المفروضة..

وإذا وقع النذر فى معصية أو مباح فلا ينعقد نذرا شرعيا، بل يحرم الوفاء به فى حال المعصية كمن نذر أن يقطع رحمه، أو يسىء إلى جاره، أو يمتنع عن صلاة مفروضة..

ويحدثنا أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ أدرك شيخا يمشى بين ابنيه يتوكأ عليهما، أى أن الرجل شيخ كبير فى السن لا يقوى على المشى وحده، ورآه النبى ﷺ يستند على ولديه كى يمشى على قدميه، ولما كانت الصورة مؤلمة، وفيها مكابدة ومشقة تلفت إليه النبى ﷺ وسأل عن السر وراء هذه المعاناة فقال: ما شأن هذا؟

فأجاب ولداه: يا رسول الله كان عليه نذر..

أى أن الشيخ الكبير نذر أن يحج بيت الله الحرام ماشيا على قدميه، وهو يتكبد المشاق وفاء لنذره..

لقد ظن الشيخ الكبير أن النذر بهذه الصورة واجب الوفاء مهما كلفه من مشاق، ونسى أن الله تعالى رءوف رحيم لا يرضى لعباده العنت، ولا يكلفهم ما يعجزون عن أدائه.. وأن كل ما شرع الله مرتبط بوسع الإنسان، ولمصلحته فى الدنيا والآخرة.

عندئذ قال النبى ﷺ:

اركب أيها الشيخ فإن الله غنى عنك وعن نذرك.

وفى رواية:

إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغنى وأمره أن يركب.

ظلم اليمين الكاذبة

يعيش الناس سعداء إذا كانوا متعاونين متآلفين متحابين، والذى يؤكد التعاون والألفة والمحبة هو صدق الإيمان وخشية الله فى السر والعلن، ومراقبة حدود الله..

ويكون تعامل الإنسان مع أخيه فى إطار العدل والإحسان، ويحكمه الصدق والإخلاص، وليس هناك حاجة إلى تأكيد القول أو العمل باليمين، فالمسلم لا يقول إلا حقا ولا يعمل إلا خيرا، ولا يحلف على شىء، وإنما الكلمة تصدر منه أمانة، يلتزم بها ويفى لها ويحرص عليها.. فإن اضطر إلى الحلف حلف صادقا وحافظ على يمينه ما لم يكن يمنعه من خير أو يدفعه إلى شر، فحينئذ يفعل الخير ويجتنب الشر ويكفر عن يمينه.

وكفارة اليمين إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم فإن عجز عن ذلك صام ثلاثة أيام.. قال الله تعالى:

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

(المائدة/ ٨٩)

والمسلم الصادق لا يعرف اليمين الكاذبة لأنها تغمس صاحبها فى النار، ولذا تسمى اليمين الغموس.

وإذا ترتب على اليمين الكاذبة فساد فى الأرض، وضياع حقوق العباد، واقتطاع أموال الآخرين فقد بلغت مبلغا فاحشا من الظلم والظلمات، ولهذا كان الوعيد شديدا لمن يأكل أموال الناس بالباطل ويستولى على حقوقهم بالأيمان الكاذبة، فقد قال رسول الله ﷺ: من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة.

فالإنسان الذى يعتدى على حق لأخيه يظلمه فيه ويضم إلى ذلك يمينا فاجرة فيقسم بالله تعالى أنه صاحب حق ليبرر ظلمه لأخيه — هذا الإنسان قد بلغ من الفسق والفجور حدا أوجب له العذاب الأليم فى الجحيم وحرمه من النعيم المقيم فى الجنان..

وأمام هذا التهديد الشديد قام رجل وقال: وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله؟

لقد تساءل الرجل عمن يقتطع شيئا يسيرا من حقوق الآخرين بيمينه الفاجرة هل يلحقه هذا الوعيد؟ ونسى هذا السائل أن الذى يحلف بالله كاذبا ليستحل شيئا يسيرا لن يتورع عن ظلم الناس فى دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ومعظم النار من مستصغر الشرر، فقد بين له الرسول أن هذا الوعيد لكل حالف كاذب يقتطع حق الآخرين ولو كان سواكا ينظف الأسنان..

فعندئذ قال النبى ﷺ:

وإن كان قضيبا من أراك..

حرمة التعامل فى الخمر

مرّ التشريع الإسلامى بمراحل فى تحريم الخمر، فقد كان الناس يشربون الخمر فى صدر الإسلام، ثم حرمت الصلاة أثناء السكر، ثم جاء التحريم قاطعا فى كل حال..

وذلك لحكمة تربوية، فالناس يومئذ ألفوها، وترتبت عليها أوضاع اقتصادية فأراد الإسلام أن يتدرج بهم حتى يتخلصوا من آثارها، ويتهيأوا لحكم الله فى ضرورة الإقلاع عنها.

والإسلام بتحريمه للخمر وكل مسكر ومخدر يحافظ على الوعى الإنسانى ويقظة العقل حتى تظل كرامة الإنسان محفوظة، ويظل سلوكه راشدا، وتظل معاملاته قائمة على النضج والفكر..

وذات يوم قدم رجل إلى رسول الله ﷺ وأهداه راوية خمر (إناء فيه خمر) ظانا أن الخمر ما زالت حلالا مباحا يشربها الناس كعادتهم فى الجاهلية وصدر الإسلام..

هنا قال النبى ﷺ للرجل: هل علمت أن الله حرمها؟

قال الرجل: لا..

فلعل هذه الواقعة كانت عقب تحريم الخمر وقبل اشتهار ذلك الحكم، فإن وسائل الإعلام يومئذ لم تكن ميسورة بالشكل المعاصر الذى نحسه اليوم..

وكان يجلس مع رسول الله ﷺ رجل فانتحى بصاحب الهدية جانبا وأسر فى أذنيه شيئا لم يسمعه المصطفى الكريم، فقال ﷺ لهذا الرجل: بم ساررته؟ فأجاب الرجل: أمرته ببيعها..

أى أن الرجل الجالس مع الرسول الكريم نصح الرجل الذى قدم هدية الخمر أن يذهب فيبيع الخمر لمن يشربها من غير المسلمين طالما أصبحت الخمر محرمة على أبناء الإسلام، وظن الرجل أنه يمكن الاتجار فى الخمور وبيعها لغير المسلمين، ونسى أن التحريم كان قاطعا وعاما ولا يحل لمسلم أن يشرب الخمر أو ينتفع بثمنها أو يروجها أو يحضر مجلسها أو يشارك فى تقديمها..

وعندئذ قال النبى ﷺ:

إن الذى حرم شربها حرم بيعها..

أحكام فى الصيد

خلق الله تعالى أنواعا شتى من الطيور والأنعام، منها ما يحل أكله ومنها ما لا يحل، وقد ربط الله تعالى الحل بالطيبات، والحرمة بالخبائث..

ومن الآيات الجامعة فى ذلك قول الله تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾.

(المائدة / ٣)

وكان الصحابة رضى الله عنهم يسألون عن أمور حياتهم ومعاشهم حتى يتحروا الحلال الطيب ويتجنبوا الحرام الخبيث، وقد جاء رجل يسمى أبا ثعلبة الخشنى وسأل عن مسائل مهمة:

المسألة الأولى: قال : يا رسول الله إنا بأرض قوم من أهل الكتاب نأكل فى آنيتهم، يعنى أنه يعيش فى منطقة يقطنها غالبية من اليهود والنصارى ويتعامل معهم ويستعمل آنيتهم مع أنهم يأكلون الخنزير ويشربون الخمر فى هذه الأوانى فهل يا ترى تكون نجسة فلا يستعملها المسلم؟

المسألة الثانية: إنا بأرض صيد يصيدون بالقوس ويصيدون بالكلب المعلم وأحيانا بالكلب غير المعلم، فما الذى يحل أكله من هذا الصيد؟

ومعنى الكلب المعلم إذا أرسله صاحبه استرسل، وإذا زجره انزجر، وإذا صاد شيئا لم يأكل منه شيئا..

ويريد السائل أن يستفتى رسول الله ﷺ عن الصيد بهذه الوسائل، فهو أحيانا يصيد بالقوس يطلقه على فريسته فيصيب منها مقتلا، وأحيانا يستخدم الكلب المدرب على الصيد يطلقه فيأتى بالفريسة وقد ماتت، وأحيانا يستخدم الكلب غير المدرب فما حكم هذه الأنواع؟

لقد أفتى رسول الله ﷺ عن كل مسألة، فبالنسبة لآنية أهل الكتاب فإن وجدنا غيرها مما لا يستخدم فى النجاسات فهو أولى وإن لم نجد غيرها غسلناها حتى تطيب نفوسنا، فالإناء ليس نجس العين فى ذاته ولكنه متنجس يطهر بالغسل بالماء..

وأما الصيد بالقوس فهو حلال شرعا متى أطلقه المرء باسم الله وكذلك الصيد بالكلب المعلم فإنه جائز شرعا، ويجوز الأكل من الصيد حينئذ حتى ولو أدركه المرء وقد فارق حياته..

أما الصيد بالكلب غير المعلم فالحكم الشرعى أن الإنسان إذا أدرك الصيد وفيه حياة فعليه أن يذبح الصيد ذبحا شرعيا ليحل أكله، أما إذا كان الصيد ميتا فلا يأكل منه شيئا..

هذا الصحابى سأل النبى الكريم عن أشياء مهمة تتعلق بحياة الناس، وعندئذ قال النبى ﷺ:

أما ما ذكرت أنكم بأرض قوم من أهل الكتاب تأكلون فى آنيتهم فإن وجدتم غير آنيتهم فلا تأكلوا فيها وإن لم تجدوا فاغسلوها ثم كلوا فيها، وأما ما ذكرت أنك بأرض صيد فما أصبت بقوسك فاذكر اسم الله ثم كل، وما أصبت بكلبك المعلم فاذكر اسم الله ثم كل، وما أصبت بكلبك الذى ليس بمعلم فأدركت ذكاته فكل..

شراء الإنسان لما تصدق به

صحابة رسول الله ﷺ هم خير القرون، وقد جادوا بأنفسهم وأموالهم فى سبيل الله، ولم يدخروا وسعا فى نصرة الإسلام، وكانوا متعاونين متراحمين مثل الجسد الواحد تؤلمه الشوكة وتعمه الفرحة..

ومن خلال معاملاتهم وتوجيه رسول الله ﷺ لهم نستطيع نحن أن نصحح مسيرتنا الاجتماعية كلها ونواصل العطاء على درب الخير والبر والمعروف..

ويحدثنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن موقف خاص به كان للرسول الكريم فيه توجيه عام، فيقول: حملت على فرس عتيق فى سبيل الله، أى أنه تصدق بفرس نفيس جواد سابق، لأن الصحابة كانوا ينفقون من أحب أموالهم يبتغون رضوان الله وثوابه..

وقد أعطى عمر هذا الفرس لرجل يجاهد عليه فى سبيل الله، لا يجد ما يحمله.. فالخيل يومئذ هى عدة الجهاد الرئيسية، ولها دور بارز فى المعارك.

لكن هذا الرجل الذى تصدق عليه عمر بفرسه أضاعه أى قصَّر فى القيام بعلفه ومؤنته حتى هزل الفرس، وظن عمر رضى الله عنه أن الرجل لا يستطيع الاستمرار فى رعاية الفرس، والقيام على شئونه لقلة ماله، وربما باعه بثمن بخس، بل إن بعض الروايات تذكر أن عمر رأى الفرس يباع..

فوقع فى نفس عمر أن يشترى الفرس من الرجل ويعطيه ثمنه، ويعود إليه الفرس الذى تصدق به..

فيا ترى هل يجوز شرعا لمن تصدق بشىء أو أخرجه فى زكاة أو كفارة أو نذر أو نحو ذلك من القربات أن يشتريه ممن دفعه هو إليه؟!

إن الصحابة رضى الله عنهم دائما كانوا يسألون رسول الله ﷺ عن كافة تصرفاتهم وأحوالهم، يستفتونه ويتعلمون منه أمور دينهم ودنياهم..

لقد ذهب عمر رضى الله عنه يسأل رسول الله.

عندئذ قال النبى ﷺ :

لا تبتعه (لا تحاول شراءه) ولا تعد فى صدقتك، فإن العائد فى صدقته كالكلب يعود فى قيئه..

تأليف بعض الناس بالعطاء

الناس فى إيمانهم على درجات، وبعضهم يريد عطاء الدنيا بجوار عطاء الدين، وشأن ولاة أمور المسلمين والقائمين على الدعوة أن يتخذوا الوسائل المتعددة لجذب الناس إلى الإيمان بالحجة والبرهان أولاً وبالعطاء والمعونة والمال ثانيا..

ولهذا كان من مصارف الزكاة الشرعية مصرف المؤلفة قلوبهم، وقد أشار إليهم القرآن المجيد فى قول الله تعالى:

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

(سورة التوبة — ٦٠)

ويحدثنا أحد الصحابة رضى الله عنه فيقول: أعطى رسول الله ﷺ رهطا وأنا جالس فيهم، فترك رسول الله ﷺ منهم رجلا لم يعطه وهو أعجبهم إلىّ..

لقد ظن هذا الصحابى أن العطاء يكون بحسب الفضائل فى الدين، وظن أن النبى ﷺ لم يعلم حال هذا الإنسان المتروك..

فماذا فعل هذا الصحابى؟ إنه يقول: فقمت إلى رسول الله ﷺ فسارررته فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان والله إنى لأراه مؤمنا.. لقد حلف هذا الصحابى ليؤكد أن الرجل يستحق العطاء لإيمانه ظنًا منه أن الرسول الكريم يوزع العطاء حسب درجات الإيمان..

وسكت هذا الصحابى قليلا ورأى أن الرسول ماضٍ فى توزيعه ولم يعط هذا الرجل شيئا..

يقول الصحابى: ثم غلبنى ما أعلم منه فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان فوالله إنى لأراه مؤمنا قال أو مسلما، فسكت قليلا ثم غلبنى ما أعلم منه فقلت يا رسول الله مالك عن فلان فو الله إنى لأراه مؤمنا قال أو مسلمًا.

وبعد هذه المرات الثلاث كان لابد من تنبيه هذا الصحابى إلى مقياس العطاء وأساس التوزيع، فالمال ليس جزاء على الإيمان، فإن المؤمن جزاؤه أعلى وأجل، وإن المؤمن ينتظر فى جنة عدن ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ويحظى المؤمن فى هذه الدنيا بالسكينة والهدوء والاطمئنان وانشراح الصدر..

قال الله تعالى:

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

(البقرة – ٢٥)

إن المؤمن الكامل لا يتزعزع يقينه سواء أقبلت عليه الدنيا أو أدبرت، لعلمه أن القبض والبسط ابتلاء من الله تعالى لعبده..

ولقد كان الرسول الكريم يكل هؤلاء الصادقين لإيمانهم ويعطى ناسًا فى إيمانهم ضعف لو لم يعطهم لكفروا..

ولما كان هذا الصحابى لم يدرك هذا المعنى العميق – عندئذ قال النبى ﷺ:

إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلىّ منه خشية أن يُكبَّ فى النار على وجهه.

القناعة والقصد
فى جمع المال

الإسلام يدعو المسلم لجمع المال حلالا طيبا، وصرفه فى البر والمعروف، حتى ينأى بنفسه عن دنايا المادة والتكالب عليها، فإن المال وسيلة وليس غاية، والعاقل يأكل ليعيش، ولا يعيش ليأكل، وقد شبه الله تعالى الكافرين المترفين بالأنعام فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾.

(محمد / ١٢)

كما حكم القرآن المجيد بأن مآل الكافرين فى الجحيم يوم القيامة لأنهم لم يتركوا متعة حراما إلا وحرصوا عليها والتهموها بشره فقال:

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

(الأحقاف / ٢٠)

وذات يوم قام رسول الله ﷺ خطيبا فقال:

لا والله ما أخشى عليكم أيها الناس إلا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا.. أى أن الرسول يحذر أمته من التكالب على جمع المال والتصارع عليه، فهذا هو أشد ما يخشاه الرسول أن يقع فى أمته، لأنه يدفع الناس عند الأثرة إلى سفك الدماء وانتهاك الحرمات..

فقال رجل: يا رسول الله أيأتى الخير بالشر؟

لقد ظن الرجل أن المال خير محض واستبعد أن يعقبه شر، فإن الناس يسعون لجمع المال لرفع مستواهم الاقتصادى وتحقيق المنافع الخاصة والعامة، فكيف يتخوف الرسول من كثرة المال لدى المسلمين؟!

فصمت الرسول ﷺ فترة من الزمن، وكان يوحى إليه فيها، فقد جاء فى بعض الروايات: فسكت عنه رسول الله ﷺ، فقيل للرجل: ما شأنك تكلم رسول الله ولا يكلمك؟ ورأينا أنه ينزل عليه، فأفاق يمسح عنه الرحضاء (العرق).

فالرسول ﷺ كان يتصبب عرقا عند لحظة الوحى، فلما انكشف عنه الوحى دعا الرسول الرجل السائل وشرح له حقيقة المسألة، فالخير الحقيقى لا يأتى إلا بخير، لكن المال ليس خيرا مطلقا، بل قد يكون فتنة، وذلك مرهون بعقيدة الإنسان الذى يجمع المال، فإن استعمله فى البر والمعروف وصلة الأرحام وقضاء حوائج الناس فهو خير، وإن استعمله فى الشهوات والملذات الآثمة والتكبر على خلق الله فهو شر..

وضرب الرسول لذلك مثلا بأن ما ينبت بماء المطر قد يكون جميل المنظر حسنا فتأتى بعض الدواب تأكل منه حتى تصاب بالتخمة فتموت وتأتى دواب أخرى فتأكل بقدر وتقتصد فيه فلا تصاب بأذى، وإن أكلت كثيرا فإنها تحاول أن تتخلص منه فتجلس فى الشمس وتجتر ما فى بطنها لتعيد مضغه ثم تبلعه وبذلك تتخلص من الزائد حتى لا يضرها..

ويمكن أن نقول أيضا إن هناك نباتا بهيجا ولكنه سم قاتل، تسرع إليه بعض الحيوانات مخدوعة بمنظره فتلقى حتفها، وهناك نبات قد يكون أقل بهجة ولكنه أكثر نفعا..

وهكذا فالمال له جاذبية تخدع كثيرا من الناس فيهلكون به تخمة وبطرا ومتعة حراما، أما من لا يخدع به فهو يكتفى بما ينفعه وإذا جمعه من حلال فرقه على وجوه البر فعاش سعيدا هانئا..

عندئذ قال النبى ﷺ:

إن الخير لا يأتى إلا بخير، أو خيرٌ هو ! إن كل ما ينبت الربيع يقتل حبطا (بالتخمة) أو يُلمّ (يقارب)، إلا آكلة الخضر، أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس ثلطت أو بالت ثم اجترت فعادت فأكلت، فمن يأخذ مالاً بحقه يبارك له فيه، ومن يأخذ مالاً بغير حقه فمثله كمثل الذى يأكل ولا يشبع.

الإيثار فضيلة الأنصار

الأنصار هم الذين آووا رسول الله فى المدينة وناصروه، وفتحوا ديارهم للمهاجرين القادمين من مكة، واقتسموا الأموال معهم، وقد امتدح الله تعالى هذا الصنيع فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(الحشر / ٩)

وقد بدأ الجهاد فى المدينة بعد الهجرة، وتحمل المسلمون من المهاجرين والأنصار — البأساء والشدة حتى انتصر المسلمون وبدأت الغنائم تتوالى عليهم، فقسمها رسول الله ﷺ بحكم الله فى قوله تعالى:

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

(الأنفال / ٤١)

وفى غزوة حنين التى كانت فى العام الثامن للهجرة بعد فتح مكة حدث أن انهزم المسلمون أول الأمر ثم نصرهم الله نصرا عزيزا، وجمعوا غنائم كثيرة، وبدأ الرسول يوزع الغنائم فرأى أن الطلقاء الذين أسلموا يوم فتح مكة ما زالوا حديثى

عهد بكفر، وأراد أن يتألفهم حتى يعمق الإيمان فى قلوبهم، فصار يعطى هؤلاء الرجال المائة من الإبل..

وهنا بدأت الشكوك تراود بعض الأنصار فقالوا:

يغفر الله لرسول الله – يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم..!!

فوصلت هذه المقالة إلى رسول الله ﷺ فجمع الأنصار فى خيمة وأتاهم..

وفى البداية سألهم: أفيكم أحد من غيركم؟ فقالوا: لا إلا ابن أخت لنا، فقال: إن ابن أخت القوم منهم..

ثم بدأ يقص عليهم ما بلغه فقال: ما حديث بلغنى عنكم؟

فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئا، وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسوله يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.. وكان الأنصار لا يكذبون..

فشرح لهم الرسول ﷺ حقيقة الموقف، وهو أن عطاء هؤلاء الذين أسلموا حديثا من قريش لا يدل على حب رسول الله لهم أكثر من حبه للأنصار، ولا يستدل منه على أنهم أفضل من الأنصار، ولا أنهم أبلوا بلاء فى الجهاد أكبر من بلاء الأنصار..

ولكن للعطاء هدف آخر هو تأليفهم وجذبهم للاستمرار على الدين الجديد، وتظل للأنصار مكانة لا تسامى، ومنزلة لا تدانى، وهى أنهم أولى برسول الله من غيرهم، فحياة رسول الله مرتبطة بهم ومماته فى أرضهم..

وإذا رجع الناس بغنائم وأموال فإن الأنصار ألصق برسول الله من سائر الناس، فالرسول يعيش بينهم ويبارك حياتهم، وقد آثرهم من دون الناس بهذه المكرمة، فرضى الأنصار واستبشروا خيرا، وبشرهم الرسول ﷺ بأنه سيكون فرطهم على الحوض يوم القيامة، يسبقهم إلى الحوض ويقدم لهم شربة هنيئة فى هذا اليوم العصيب لا يظمأون بعدها أبدا..

عندئذ قال النبى ﷺ:

إن قريشا حديث عهد بجاهلية ومصيبة، وإنى أردت أن أجبرهم وأتألفهم، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله إلى بيوتكم، لو سلك الناس واديا وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار..

وفى رواية: فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، قالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا، قال: فإنكم ستجدون أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله فإنى على الحوض .. قالوا: سنصبر.

فضل النفقة على الأقربين

المال نعمة حيث ينتفع به المرء فى نفسه ومجتمعه انتفاعا صحيحا، ويكون نقمة حيث يسرف المرء ويغشى الشهوات والمآثم..

وقد وعد الله تعالى — ووعده الحق — أن يبارك النعمة التى يلتزم صاحبها بحدود الله فقال جل شأنه:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾

(إبراهيم / ٧)

وقد كان أحد الصحابة، وهو أبو طلحة، أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، جمعه من حلال، وصرفه فى البر، وحرص على مرضاة الله تعالى فيه، وكان أحب أمواله إليه (بَيْرحَى) — وهى حديقة —، وكانت مستقبلة المسجد النبوى الشريف، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب..

أى ان هذه الحديقة جمعت مزايا كثيرة، فهى خضراء تسر الناظرين، وفيها ماء زلال، وبجوار مسجد الرسول، ذلك المسجد الذى له المكانة والمنزلة فى الدين، فالصلاة فى المسجد النبوى تعدل فى الأجر والثواب — ألف صلاة فى غيره من المساجد إلا المسجد الحرام فإن الصلاة فيه بمائة ألف صلاة..

ولما نزلت الآية الكريمة:

﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾.

(آل عمران / ٩٢)

وكان الصحابة أسرع الناس إلى امتثال الأمر واجتناب النهى، وأحرص الناس على دين الله، وأشد الناس حبا لله ورسوله، وأكثر الناس ولاء للحق والقيم..

قام أبو طلحة رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ وقال:

إن الله يقول فى كتابه: «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون»، وإن أحب أموالى إلىّ بَيْرحَى، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث شئت.

لقد أراد هذا الصحابى الجليل أن يبرهن برهانا صادقا على يقينه الكامل بوعد الله، وثقته المطلقة بثواب الله، فتنازل عن أحب أمواله طواعية واختيارا وإيثارًا، وجاء إلى رسول الله ﷺ يفوضه فى التصرف فى هذه الحديقة بما يراه مناسبا ومحققا لمصلحة المسلمين..

فإن المال عرض زائل وعارية مستردة، وحين يتصدق الإنسان بالفانى من الدنيا إيثارا للباقى من ثواب الآخرة يكون قد بلغ من عمق الإيمان مبلغا عظيما، ووصل فى الإحسان رتبة عليا، وحقق نقاء روحيا ساميا، فإن المال شقيق الروح، وانفاقه فى سبيل الله يحتاج إلى مجاهدة كبيرة..

وقد علم الرسول ﷺ هذا الصحابى كيف يحصل على الثواب والرضا من الله بما يجمع له خير الدنيا والآخرة، فأرشده إلى أن يتصدق بماله هذا على أقربائه وذوى رحمة الفقراء، فإن الصدقة على هؤلاء لها أجران: أجر صلة الرحم، وأجر صدقة المال.

وبذلك يصل الإنسان رحمه ويخرج صدقة ماله ويحصل على مرضاة الله عز وجل.. فإن بعض الناس يغض الطرف عن مساعدة ذوى قرباه المحتاجين، ويبذل ماله هنا وهناك وينسى هؤلاء..

إن كفالة ذوى القربى آكد وأشد إلزاما، وهى فى أوليات النفقة..

ولقد استجاب أبو طلحة لنصيحة رسول الله وقسّم صدقته فى أقاربه وبنى عمه.. عندئذ قال النبى ﷺ:

بخ (كلمة تعنى تعظيم الأمر وتفخيمه)، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، قد سمعتُ ما قلت، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين.

البحث عن المسكين المتعفف

الإسلام دين العزة، يأبى للمسلم أن يكون ذليلا، والإسلام دين العمل يأبى للمسلم أن يكون كسولاً خاملاً، والإسلام دين الإيثار يأبى للمسلم أن يكون شحيحا بخيلا..

وقد أمر الله تعالى بالسعى وبذل الجهد لاكتساب لقمة العيش وتوفير مطالب الحياة، قال الله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾.

(الملك / ١٥)

والتسول جريمة يعاقب عليها الدين ويمنع منها، لأنه يترتب عليها مجموعة مفاسد، فهى تجرح عزة المؤمن، وهى تحول بين الإنسان والعمل الشريف وتدفعه إلى التكاسل والخمول، ثم هى أكل لأموال الناس بالباطل، والذين استمرأوا التسول واتخذوه مهنة لا يتعففون عن أخذ أى شىء، ولا يمتنعون عن طلب أى شىء، ولا يقفون فى السؤال عند حد ولهذا قال رسول الله ﷺ:

(ليس المسكين بهذا الطواف الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان).

فمثل هذا الشخص لا يكترث به المسلم كثيرا، فمن تعود السؤال وألحف فيه واتخذه حرفة قد لا يكون محتاجا وليس أهلا للصدقة.

وقد عجب الصحابة رضى الله عنهم من مقالة رسول الله ﷺ وتساءلوا: فما المسكين يا رسول الله؟

فإن من شأن المسلم الصادق أن يبحث عمن يستحق الصدقة، ويسعى إليه ليقدمها له، فإن الغنى الشاكر يرى نفسه أحوج إلى ثواب الصدقة من الفقير إلى الصدقة نفسها، ولهذا فهو يجيد البحث عن المسكين لتصل الصدقة إلى مستحقها..

وقد وضع الرسول ﷺ ضوابط لمثل هذا المسكين المستحق للصدقة، فهو رجل محتاج لا يجد ما يكفيه لعجزه عن العمل أو لعمله الذى لا يدر عليه كفايته.. ومع ذلك فهو يتوارى عن أعين الناس، لا يريق ماء وجهه فى السؤال، ولا يذل نفسه بالإلحاح، وليس من اليسير اكتشاف حاله، بل يحتاج إلى فطنة من الأغنياء.. كما قال الله تعالى:

﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾.

(البقرة / ١٧٣)

ولما تساءل الصحابة عن تعريف المسكين المستحق للصدقة، عندئذ قال النبى ﷺ:

الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفْطن له فيُتَصدق عليه ولا يسأل الناس شيئا.

العطاء دون سؤال

عاش الصحابة مع رسول الله ﷺ يقتفون أثره، ويتأدبون بأدبه، ويتعلمون من توجيهاته، ويستشيرونه فى حياتهم كلها..

ومن خلال التعامل اليومى بين الرسول والصحابة وضحت للمسلمين مناهج للتربية تُصلح الحياة وتُسعد الأحياء..

والزهد والقناعة والعفة والترفع عن السؤال من معالم الحياة الإسلامية، لقد كان رسول الله ﷺ يعطى عمر بن الخطاب رضى الله عنه العطاء المالى لأن الرسول كان يتفقد أصحابه ويهتم بشئون حياتهم ويحرص على ادخال السرور عليهم.، ومع ذلك كان عمر بن الخطاب يقول للرسول ﷺ: بأدب جم: يارسول الله أعطه أفقر إليه منى..

إن روح الإيثار والتضحية كانت هى السائدة فى مجتمع المسلمين، ولم يكونوا يعرفون الشحناء ولا البغضاء ولا الحرص على المال.. وانطوت قلوبهم على حب عميق لبعضهم بعضا، وغلب عليهم تقديم حق الآخرين على حقوق أنفسهم، فإن مجتمع المسلمين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وكالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا..

لذلك كان عمر بن الخطاب إذا جاءه عطاء ومنحة من بيت مال المسلمين يرجو من الرسول ﷺ أن يمنحه لمن هو أفقر منه وأحوج إليه، وظل عمر هكذا يرفض العطاء بعزة نفس وإيثار، حتى إذا كان ذات مرة علّمه الرسول ﷺ الموقف الصحيح فى هذه المسألة..

فطالما أن المال أو المنحة من الحاكم لأحد المواطنين قد جاءت إليه دون تطلع، ودون حرص، ودون سؤال، ودون تملق ونفاق فلا بأس حينئذ على المواطن أن يتقبلها شاكرا لولى الأمر هذه اللفتة الكريمة، ويمكن للمواطن أن يتصرف فى هذا

المال الممنوح بما يراه مناسبا، ويضعه فى منفعة بيته الخاص أو منفعة مجتمعه العام، فله أن يأكل منه ويتصدق..

وحين يأتى المال من ولى الأمر تحت إلحاح من المواطن وحرص شديد وأثرة وأنانية فلا يحق له أخذ العطاء، ويكون المال سحتا حراما..

وهكذا حاول عمر بن الخطاب أن يرفض العطاء تعففا مرة بعد مرة متعللا بقوله: يا رسول الله أعطه أفقر إليه منى..

عندئذ قال النبى ﷺ:

خذه فتموله أو تصدق به، وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك.

أصحاب المسألة

المسلم يتعفف مهما كان فقيرا، ويظل حريصا على ماء وجهه يصونه عن الابتذال، والحياة الدنيا لا يصلحها إلا القناعة، فالقناعة كنز لا يفنى، ومتى فتح المرء على نفسه باب السؤال فقد فتح على نفسه باب الذل..

لكن أحيانا يجد الإنسان نفسه مضطرا لأن يسأل، فإذا وصل إلى حال الضرورة فإن الضرورات تبيح المحظورات..

وكان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه عزة النفس، ويدفعهم إلى التجلد والصبر ويدعوهم إلى القناعة والزهد.. وكان يقول لهم (لا تسألوا الناس شيئا)، وقد التزموا بذلك التزاما أمينا حتى كان يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدا يناوله إياه..

ويروى أحد الصحابة وهو قبيصة بن مخارق الهلالى فيقول: تحملت حمالة، أى استدان لإصلاح ذات البين، فقد تنازعت قبيلتان أو جماعتان أو رجلان، وتدخل هذا الصحابى ليحل المشكلة وتحمل دَينا على نفسه يؤديه لأحد أطراف النزاع حتى يحسم الشر ويمنع الأذى ويوقف العدوان ويستأصل من النفوس نزغات الشيطان..

ولما تحمل هذا الصحابى دينا فى هذا الخلاف والنزاع الذى لا ناقة له فيه ولا جمل جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب مساعدة حتى يتمكن من سداد الدين، إذ هو من مصارف الزكاة المشروعة المذكورة فى قوله تعالى:

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

(التوبة / ٦٠)

فهو يدخل تحت صنف (الغارمين).

فقال الرسول ﷺ: أقم حتى تأتينا صدقة فنأمر لك بها، ثم نصحه الرسول نصيحة عامة، وبين له أن المسألة والسؤال لا يحل لمسلم أن يجترأ عليها إلا فى حالات ثلاث:

الأولى: مثل حالة هذا الصحابى الذى تحمل دينا للإصلاح بين الناس فيحق له السؤال وطلب المعونة حتى يستكمل سداد الدين.

الثانية: رجل فقد ماله فى كارثة عامة أو خاصة فيحق له السؤال حتى يجد ما يقيم أوده ويصلح حياته.

الثالثة: رجل فقير لا يجد كفافا ولا كفاية، وظهر ذلك علانية، واشتهرت بين قومه فاقته وحاجته فيحق له السؤال حتى يجد ما يسد رمقه ويمسك عليه حياته..

وما عدا الحالات الثلاث يُعد السؤال حراما، وما تجمع من أموال حينئذ لا يبارك الله فيها وتكون وبالاً على صاحبها فى الدنيا والآخرة..

لقد قام الصحابى الجليل قبيصة بن مخارق الهلالى بموقف إنسانى نبيل للإصلاح بين الناس، ولما جاء إلى الرسول الكريم يطلب منه المساعدة والمشاركة عندئذ قال النبى ﷺ:

يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش، ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحجا من قومه، لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش، فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت، يأكلها صاحبها سحتا.

المسارعة لقضاء الديون

من أدب الإسلام وكرامة الإنسان — دفن الميت بعد غسله وتكفينه والصلاة عليه، وشأن الإنسان العاقل أن يلقى ربه بريئا من حقوق العباد بلا اعتداء ولا ظلم حتى لا يقتص منه يوم القيامة، فتؤخذ حسناته وتعطى لصاحب الحق، فإن لم تكن له حسنات تحمل من سيئات صاحبه فطرحت عليه ثم طرح فى النار، ولا يظلم ربك أحدا..

ولهذا كان رسول الله ﷺ يؤتى بالرجل الميت عليه ديون فيسأل هل ترك لدَيْنه قضاء؟!

فالرسول ﷺ قبل أن يصلى صلاة الجنازة يسأل هل على الميت ديون لأحد من الناس، فإن كان عليه دَيْن وترك وراءه مالا يفى بسداد ديونه صلّى عليه ودعا له..

وإن كان الميت لم يترك ما يفى بدينه رفض رسول الله ﷺ أن يصلى عليه صلاة الجنازة وقال لمن حوله: صلوا على صاحبكم..

وكان هذا توجيها حكيما رائدا من الرسول ﷺ لأمته حتى يحرص كل إنسان على أن يعجل بإبراء ذمته وأداء الحقوق لأصحابها دون إمهال أو تأخير..

فكل مسلم يلتمس دعاء رسول الله ﷺ، ويتمنى أن يقف الرسول أمام جسده المسجى مصليا عليه، فإذا علم أن الرسول الكريم لن يصلى على مدين كان ذلك دافعا له للسعى الحثيث لقضاء دينه قبل أن يدركه الموت، فإن الموت يأتى فجأة «وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت».

ولم يكن الرسول ﷺ فى هذا الوقت يملك مالاً ولم يكن للمسلمين حينئذ بيت للمال العام..

فلما فتح الله على المسلمين الفتوح وجاءت الغنائم وكثرت الأموال – تولى الرسول ﷺ بنفسه قضاء ديون موتى المسلمين، فحين يحمل ميت ويوضع أمام الرسول ويسأل عنه ويعلم أن عليه دينا – يقوم الرسول ﷺ بأداء ما عليه لصاحبه ثم يصلى عليه صلاة الجنازة، فالرسول بالنسبة للمسلمين كأبيهم يرعى مصالحهم ويتولى شئونهم وهو ﷺ أحرص عليهم من أنفسهم.

وهذا موقف نسديه إلى الحكومات الإسلامية أن تعمل على مساعدة المواطنين وتيسير الخدمات لهم وحسن القيام برعايتهم..

إن رسول الله ﷺ جاءته الغنائم وتفقد أحوال المسلمين، وعندئذ قال:

أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفى وعليه دَيْن فعلىّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فهو لورثته..

حسن قضاء الدَين

تعاون الناس فريضة، وتبادل الخدمات بينهم ضرورة، ومساعدة بعضهم بعضا واجب حتمى لاستمرار الحياة..

وعندما يقدم إنسان لآخر معروفا أو برا أو صلة فالشكر يكون برد مثله أو أحسن منه حتى تظل القلوب صافية والعلاقات وطيدة.. قال تعالى:

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾.

(النساء / ٨٦)

ويحدثنا أحد الصحابة وهو أبو رافع — أن رسول الله ﷺ استسلف من رجل بكرا، أى اقترض منه جملا صغيرا..

والقرض الحسن هو باب من أبواب التعاون والبر بين الناس، وقد تعامل به رسول الله بيانا للجواز، وقدوة للناس دائنا ومدينا.. وقد قال الله تعالى:

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

(الحديد / ١١)

والتعامل بالقرض الحسن غير التعامل بالربا، فإن الربا حرام، وممارسته كبيرة من كبائر المعاصى، والكسب منه سحت خبيث.. قال تعالى:

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾.

(الروم / ٣٩)

والإنسان المقترض ينبغى عليه حسن الوفاء وشكر المقرض لأن من لا يشكر الناس لا يشكر الله..

وعندما قدمت إبل الزكاة التى يجمعها العاملون عليها لتوزيعها على فقراء المسلمين – أمر رسول الله ﷺ أبا رافع أن يشترى بكرا يناسب البكر الذى اقترضه ليرده على صاحبه..

ورجع أبو رافع إلى رسول الله ﷺ فقال: لم أجد فيها إلا خيارا رباعيا، والمعنى أنه لم يجد بكرا بالسن المناسبة لسن البكر الذى اقترضه الرسول الكريم. وإنما وجد أكبر منه وأحسن منه، وتزيد قيمته على قيمة البكر المقترض..

والرباع هو من استكمل ست سنين ودخل فى السابعة..

ومع ذلك أمر رسول الله ﷺ أبا رافع أن يشترى هذا الجمل الرباع، ويدفعه إلى صاحب البكر الصغير، فإن مكارم الأخلاق تقتضى الزيادة فى الأداء، سواء كانت زيادة صفة أو زيادة عدد، كمن اقترض بكرا وأدى رباعيا، أو اقترض خمسا فأدى سبعا..

وهذه الزيادة ليست حراما، وليست من باب القرض الذى جَرّ نفعا، فإن المنهى عنه هو اشتراط ذلك فى العقد، أما من أقرض الناس حسبة لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته، ثم جاء المقترض ورد دَيْنه بالزيادة فهذا من باب مكارم الأخلاق وشكر المعروف، ويجوز للمقرض أخذ الدين مع الزيادة إن شاء، ولو تعفف واكتفى بأصل دينه فهذا معروف آخر وأدب يحسب له..

إن أبا رافع رجع إلى رسول الله ﷺ وذكر له أنه لم يجد البكر المناسب لبكر المقرض، وإنما وجد جملا أكبر سنا وأغلى ثمنا..

عندئذ قال النبى ﷺ:

أعطه إياه، إن خيار الناس أحسنهم قضاء.

حقيقة المفلس

كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه الدين ومكارم الأخلاق، ويضرب لهم الأمثلة، ويقدم لهم النماذج، ويحاورهم حتى يكون العلم أسبق إلى قلوبهم وأرسخ فى عقولهم وأبقى فى سلوكهم..

وأحيانا كان رسول الله ﷺ يقدم لهم مفاهيم جديدة لأمور اصطلح الناس عليها وفهموها فهما معينا، فيغير الرسول الكريم هذا الفهم ويبين لهم الحقيقة الكاملة..

وذات يوم سأل الرسول ﷺ أصحابه قائلا:

أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع..

لقد تحاور الرسول الكريم مع أصحابه حول مفهوم المفلس، ولقد شاع بين الناس أن المفلس هو الإنسان الذى ارتكبته الديون ولا يملك مالا أو عقارا، ولا يستطيع الوفاء بديونه التى اقترضها..

وهذا المفهوم للمفلس نسبى قد يزول، فإن دوام الحال من المحال، وأغنياء اليوم فقراء الأمس، وقد يكون فقراء اليوم أغنياء الغد.. كما قال الله تعالى:

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾.

(آل عمران / ١٤٠)

ومداولة الأيام تعنى تغير الأحوال بين الغنى أو الفقر، والنصر أو الهزيمة، والصحة أو المرض، والإنجاب أو العقم، والحياة أو الموت..

ومن هنا نبه الرسول ﷺ إلى حقيقة جديدة تتعلق بمعنى الإفلاس، ذلك هو ما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية والتعامل مع الخلق، فإن الإنسان مسئول أمام الله تعالى عن أعماله خيرها وشرها، وإن المرء الذى يعتدى على حقوق الآخرين من

سب وإيذاء وسرقة وظلم وسفك دماء وغير ذلك – يتعقبه الله تعالى ويجرى عليه حكمه العدل..

فمثل هذا الإنسان الظالم لإخوانه ومجتمعه مطالب شرعا برد الحقوق لأصحابها والسعى لينال مسامحتهم له فى هذه الدنيا، قبل أن تأتى لحظة الموت ويفارق هذه الحياة، وينتقل إلى لقاء الله تعالى، ويقف بين يدى ربه جل شأنه فيحاسبه حسابا عسيرا..

ويتحقق العدل حينئذ بأن يأخذ الله تعالى من حسنات هذا الظالم فيعطى لأصحاب الحقوق حتى يستوفوا، فإذا لم توجد حسنات لهذا الظالم تحمّل هو من سيئات أصحابه بقدر مظلمته فتتضاعف عليه السيئة ولا يبقى له حسنة، ويكون مصيره الهلاك وبئس المصير..

إن هذا المفهوم الجديد للمفلس يدفع المرء إلى حسن المعاملة ولين الجانب وكرم الأخلاق كما يدفع بالمرء إلى سرعة التوبة وضرورة التخلص من حقوق العباد، والحرص على إبراء الذمة حتى يلقى الله طاهرا مطهرا..

إن الرسول ﷺ سأل أصحابه عن مفهومهم للمفلس ولما أجابوا بما يعلمون، عندئذ قال النبى ﷺ:

إن المفلس من أمتى مَنْ يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار.

فضل الشهادة فى سبيل الله
وأهمية إبراء الذمة

كان رسول الله ﷺ يعظ أصحابه، ويقدم لهم النصيحة، ويرشدهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم.. ليعملوا بهذه التوجيهات النبوية الكريمة ويعلموها للناس من بعده، ويقوم كل جيل بنقل هذا الميراث النبوى حتى يتواصل الاقتداء وحسن العمل..

وذات يوم قام الرسول ﷺ فى أصحابه خطيبا، فذكر لهم أن الجهاد فى سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال.. وهذا لا شك فيه، فإن عقيدة الإنسان هى ميزان سلوكه، وقانون حياته، وعنوان مسيرته لعمارة الدنيا وسعادة الآخرة..

والعقيدة فى حاجة إلى حماية من الأعداء المتربصين بها، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ولكن هيهات فإن الله ناصر دينه، ومؤيد أوليائه، والعاقبة دائما للمتقين..

وطالما أن الإيمان والجهاد هما أفضل الأعمال تقربا إلى الله تعالى، فمن سلك طريقهما فقد طهر نفسه واستقام على الجادة وصحح مسيرته فى الحياة، وحينئذ يلقى الله راضيا مرضيا، ولهذا قام رجل فقال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت فى سبيل الله يكفر عنى خطاياى؟

إن الشهادة هى أسمى مراتب الثواب، وأعلى مقامات العمل، وأجل منزلة عند الله، فليس هناك أكبر عملا ممن جاد بنفسه وضحى بحياته من أجل دينه وإسلامه..

فقال له رسول الله ﷺ: نعم إن قتلت فى سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر..

صحيح أن الشهادة فى سبيل الله هى قمة العمل الدينى، لكنها ليست مجرد تضحية خالية عن الهدف النبيل، فلابد أن يصحبها حسن النية والإخلاص الكامل لله، والرغبة الصادقة فيما عند الله بلا شهرة أو رياء أو سمعة..

ثم عاد رسول الله ﷺ فنادى على الرجل السائل وقال: كيف قلت؟ قال: أرأيت إن قتلت فى سبيل الله أتكفر عنى خطاياى؟ لقد أراد الرسول ﷺ أن يذكر الرجل بقضية أخرى ذات أهمية قصوى، ألا وهى الحقوق الاجتماعية..

فالجهاد والموت فى سبيل الله وإن كان له من الثواب والفضل والجزاء ما لا يحصى إلا أن ذلك مشروط بأداء الحقوق لأصحابها، فمن كان عليه دَيْن فلابد أن يسعى فى إبراء ذمته وأداء الدَيْن لصاحبه، فإن الدَيْن هَمٌّ بالليل ومذلة بالنهار، والمسلم عزيز بعزة الله، إن اضطر إلى المداينة فهو لا يهدأ حتى يرد الدين لصاحبه..

ومن مات وعليه دين فروحه محبوسة عن النعيم حتى يقوم أحد من الورثة برد الدين واستسماح صاحبه.

إن النبى ﷺ استرجع الرجل وسأله عما قال. وعندئذ قال النبى ﷺ:

نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدَيْن، فإن جبريل عليه السلام قال لى ذلك..

وفى رواية: **يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَيْن.**